التأنيث في اللغة العربية: وصف وإشكال[1]

د كمال الساقي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس- أكَدال الرباط

مقدمة

نعالج، في هذه الورقة، ظاهرة لغوية جد حسَّاسة لطالما شَغَلَت أذهانَ النحاة واللغويِّين منذ قرون مضت، وما زالت لحد اليوم تعج الأدبيات اللسانية، قديمها وحديثها، بما أفرزته تصوراتٌ متنوعة على اختلافها (انظر فشر (1972) (Fischer)، ورايت (1974) (Wright)، وفليش (1961، 1968 و1979) (Fleish)، وغيرهم من المستشرقين). فالبعض ربط الموضوع، أثناء معالجته لهاته الظاهرة، بالقياس والسماع (أي بقياس مطرد أو ما اطرد وشاع)، والبعض الآخر بصَرْفِيات التأنيث (أي العلامات الدالة على التأنيث كالتاء والألف بنوعيها، ومنهم من زاد على ذلك).

غير أننا نذهب مذهبا آخر، تفرضه طبيعة الموضوع الشائكة واختلاف التصور، يتعلق الأمر بمُعْجَمية التأنيث. بمعنى أن التأنيث معجمي غير قياسي يُقدِّمه المعجم في لوائح ويُتعلَّم. فتناوله بالقياس والسماع لا يحل المشكل على أساس أن المعرفة الموسوعية ليست فيها ضوابط ولا تخضع لقيود أو شروط. أما عن اللواصق الصرفية الدالة على التأنيث كالتاء مثلا، فنقول إن اللَّواصِق في

(1) أُلْقِيَت هذه المقالة، في صيغة غير مُعَدَّلة، خلال الدورة التكوينية، رقم 84، المنعقدة بمراكش، بدعم مادي من مؤسسة كونراد أدناور ستيفتونغ (2007) Konrad-Adenauer-Stiftung. وأتوجه بالشكر إلى الحاضرين على ما أفادوني به أثناء النقاش.

الصرف ملتبسة، كما في (1)، وينبغي ألا ننخدع بالصَّرْفِية بحكم بُعْد دلالتها عن المراد (أي الدلالة على التأنيث)، فضلا عن أن لاصقة التأنيث قد نجدها بعينها في المذكر، كما تُبْدي الأمثلة (2) مقارنة بِـ (3):

(1) أ) نخل — نخلة [التاء هنا لتمييز الواحد من الجنس]

ب) زناديق — زنادقة [التاء هنا بدلا من ياء التكسير]

ج) *ملول — ملولة (خوافة) [التاء هنا للمبالغة، لا للتأنيث]

د) وَعْد — عِدة [التاء هنا عوض عن فاء الكلمة؛ لأن الأصل "وَعْد"]

(2) ا) جاءت الجدة *راكبة*

ب) التقطتُ كرة *حمراء*

ج) ساعدنا امرأة *حبلى*

(3) ا) جالسوا رجلا *راوية* للشعر

ب) مات في يوم *ثلاثاء*

ج) شاهدَت جملا *قَبَعْثَرى* (ضخما شديدا)

وإلى جانب التأنيث المعجمي، نجد نوعا آخر من التأنيث تزخر به اللغة العربية كمثيلتها الفرنسية، يُدْعى بالتأنيث السياقي الذي يبرُز جليا من خلال الآثار التطابقية التي يُخلِّفها ظهور سمة التأنيث أو غيابها، ونمثِّل له بالأمثلة (4)-(6) تِباعا:

(4) وحدة الشباب دعامة *أساسية* للتنمية *المحلية*

(5) يَسمع دبيب النملة *السوداء* في الليلة *الظلماء* تحت الصخرة *الصَّماء*

(6) La *petite* fille *blanche*, qui met un pyjama à feuilles *vertes*, dort dans un lit tout blanc

"الفتاة *البيضاء* الصغيرة، التي ترتدي منامة بأوراق *خضراء*، تنام على سرير كله أبيض"

إذن، لدراسة ظاهرة التأنيث نحتاج إلى شيء آخر، بل إلى تصوُّر مُغايِر أكثر فاعلية ومقبولية للتمييز بين المذكر والمؤنث بعيدا عن كل التباس أو شُبْهة. سنقدِّم، في البداية، صورة عامة لنظام الجنس داخل اللغات عموما، وفي اللغة العربية، على وجه الخصوص. وكنقطة ثانية، سنحيل بإيجاز على بعض المحاولات التي أقيمت في الأدبيات البنيوية والاستشراقية حول طبيعة لواصق التأنيث وإنتاجيتها في الساميات. كما سنبدي في نقطة أخيرة، تبعا للدكتور محمد بلبول (2007)، بعض الملاحظات التي تكشف عن عدم ملاءمة هذه الأوصاف، مبرزين في نفس الوقت الحاجة إلى جهاز نظري تُؤطَّر فيه ظاهرة التأنيث، ويسمح بتحديد الوظائف الصرفية والتركيبية والدلالية تحديدا ملائما لبنية اللغة العربية.

1. تصريف نظام الجنس داخل اللغات: اللغة العربية نموذجا

فعن موسوعة ويكيبيديا Wikipedia (2007)، تنقسم اللغات إلى صنفين:

أ)- لغات لها نظام جنس نحوي (grammatical gender)، إمّا ثنائي أو ثلاثي (وهي كثيرة جدا) أو ما فوق الثلاثي، ومنها: اللغات السامية، واللغات الهند-أوروبية، واللغات الجرمانية، واللغات الطبيعية، ...

ب)- لغات ليس لها نظام جنس نحوي (ungrammatical gender) بالمرة، وعددها قليل، مثل[2]:

. لغات التايك (Altaic)

. اللغات النمساوية (Austronesian)

. اللغات الصينية-التبتية (Sino-Tibetan)

(2) انظر موسوعة ويكيبيديا الحرة Wikipedia (2007) لمزيد من التفصيل بخصوص هذه اللغات اللاجنسية.

. اللغات الأورالية (Uralic)

بالنسبة للمجموعة (أ)، وهي ما يهمّنا هنا (أي مجموع اللغات التي لها نظام جنس نحوي)، فنقسِّمها بدورها إلى ثلاثة أصناف مصحوبة بأمثلة من بعض اللغات، كما في (1.ا)–(3.ا) تِباعا. أمّا عن المجموعة (ب)؛ أي مجموع اللغات التي ليس لها نظام جنس نحوي بالمرّة، فنأخِّر الحديث عنها للقاء علمي آخر.

1.ا: نظام جنس نحوي ثنائي (مذكر/ مؤنث)

تُظهِر اللغات، الواردة أسفله، نمطية معينة من حيث تأنيث الكلمة أو تذكيرها؛ فهي (فيما يبدو) لا تخرُج عن نمط ثنائي مذكر/ مؤنث تمثِّله كل من العربية المعيار، والفرنسية، والإنجليزية، كلغات طبيعية، وأيضا كل اللغات المذكورة في (10):

(7) نمط اللغة العربية

أ) رجل — امرأة

ب) أخ — أخت

ج) حمار — أتان

(8) نمط اللغة الفرنسية

أ) le frère —— la soeur

ب) le docteur —— la doctoresse

ج) le jardinier —— la jardinière

د) le petit —— la petite

(9) نمط اللغة الإنجليزية

أ) actor —— actress

ب) husband —— wife

ج) it، she، he (ثلاثية النظام بالنسبة للضمائر)

(10) الأكادية، الأرامية، البنغالية، الكتلانية، العبرية، الهندية، الإيرلندية، الولشية، الأمازيغية[3]، ...

2.1: نظام جنس نحوي ثلاثي (مذكر/ مؤنث/ محايد)

تزيد نمطية هذه اللغات عن السابقة بنمط جديد يسمى "المحايد"[4]، ولا تميِّزه في الغالب إلا اللاصقة، كصَرْفِية مُلازِمة له. نذكر من هذه اللغات، ما هو وارد في أمثلة الأنساق المختلفة في (11)-(14)، على التوالي:

(11) نمط اللغة الإسبانية

أ) este (إش مفرد مذكر)

ب) esta (إش مفرد مؤنث)

ج) esto (إش مفرد محايد)

(12) نمط المحايد في اللغة البرتغالية

أ) todo homem

"أيُّ رجل"

ب) toda mulher

(3) انظر شاكر سليم (1998) بهذا الخصوص.

(4) يقول محمود فهمي حجازي، ص 145-146، في "علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية"، ما مُراده: "في اللغات الجرمانية، يوجد إلى جانب المذكر والمؤنث صيغة ثالثة يطلق عليها (Neutrum)، ويترجَم هذا المصطلح بالمحايد، ولا علاقة هنا بين الكلمة كصيغة لغوية وما تدل عليه في واقع الحياة. ومن هذا النوع، في الألمانية، كلمة (fräulein) ومعناها "آنسة"، وكلمة (mädchen) ومعناها "بنت"، وكلمة (häschen) ومعناها "بيت صغير". فكل هذه الأسماء تصنَّف في الألمانية من المحايد، وذلك وَفْق الصيغة اللغوية، لا وَفْقا لما تدل عليه الكلمة في الواقع الخارجي".

"أية امرأة"

ج) tudo

"أيُّ شيء"

(13) نمط المحايد في اللغة الألمانية

أ) fräulein (آنسة)

ب) mädchen (بنت)

ج) häschen (بيت صغير)

(14) البوسنية، البلغارية، الإيطالية، اليونانية، الألمانية، النرفيجية، الروسية، الصربية، ...

3.1. لغات لها نظام جنس ما فوق ثلاثي:

(مذكر/ مؤنث/ حي/ جامد/ نباتي/ ...)

قد يحكم هذه اللغات منطق مغاير؛ فهي تختلف عن المألوف في الأنساق المختلفة المعروفة، باعتبار عددها القليل الذي قد لا يتجاوز العشرة. وفي هذه اللغات، قد نلفي الجنس تحدِّده العديد من المعايير أو السمات التي تفوق الثلاثة، مثل: المذكر، والمؤنث، والمحايد، والحي، والجامد، والنباتي، وغير ذلك. وعليه، نقدِّم أمثلة لهذه اللغات التي تملك نظام جنس ما فوق ثلاثي، كما يلي:

(15) اللغات البولندية (Polish)، لغة الزاندي (Zandi)، لغة اللكَندا (Luganda) ولغة التكَلوكَ (Tagalog)، ...

عودا إلى اللغات التي يكون نظامها الجنسي ثنائي، نختار اللغة العربية التي يمكن أن نتناوله فيها بحسب النمط أو الطبيعة المقولية للكلمة، على أساس أن الموسوم هو الذي تَلحَقه لاصقة التأنيث عموما (وهي حالة المؤنث)، وغير الموسوم هو ما عَرِيَ منها أو تجرَّد عنها في الغالب (وهي حالة المذكر)، كما تبدي ذلك الأمثلة (16)-(33) أسفله.

1.1.1. الصفة: يظهر نظام الجنس الموسوم فيها ثنائيا.

إذا ما قارنا أمثلة المجموعة الموجودة على اليمين بأمثلة المجموعة الموجودة على اليسار في المثال (16)، فإننا سنَخلُص إلى أن جنس الصفة الموسوم يَظهَر فيها دائما ثنائيا (مؤنث مقابل مذكر) ولا يخلو من أن يكون؛ إمّا مقترِنا بالتاء (كما في (16ا))، أو بالألف الممدودة والمقصورة (كما في (16ب) و(16ج) على التوالي). وفي مقابل ذلك تتجرد صفة المذكر من قرائن التأنيث دائما (كما في (16ا–ج)) ما عدا إن كانت وظيفتها مقصورة على غير التأنيث، كتوسيع البنية مثلا، كما في (16د) و(17ج–د)، أو لإفادة المبالغة وتأكيدها، كما في (17ا) و(17ب) على التوالي، فضلا عن أن التاء، التي تَلحَق صيغة *فَعول* المؤنثة (كما في (18))، هي للدلالة على المبالغة لا التأنيث.

(16) ا) لحية كثيفة — شعر كثيف

ب) كرة حمراء — لون أحمر

ج) صورة كبرى — إطار أكبر

د) ناقة عطشى — جمل عطشان

(17) ا) رجل راوية للشعر

ب) رجل علاَّمة في الأدب

ج) شيخ عَياياءٌ

د) جمل قَبَعْثَرى

(18) امرأة *ملولة* و*فروقة*

(19) ا) امرأة طالق

ب) امرأة معطير ورجل معطير (كثير العطر)

أمّا الجنس غير الموسوم بعلامة في الصفة المؤنثة، كما يشير إلى ذلك المثال (19)، فمَرَدُّ ذلك إلى السياق. عموما، إذا كان الفرق واضحا، بالنسبة للصفات الموسومة باللواصق الجنسية، فهو غير واضح تماما بالنسبة للأسماء.

2.1.1. الأسماء: تختلف دلالة اللاصقة باختلاف نوع الاسم الذي تدخل عليه.

α- أسماء الأعلام:

(20) أ) حمزة

ب) زكرياء

ج) يحيى، أرطى

د) مروان

هـ) زيد

(21) أ) فاطمة

ب) زينب، هند

ج) رضوى

د) علياء

هـ) إحسان

بالنسبة لأسماء الأعلام، نجد أن صَرْفِيات التأنيث التي تَلحَق المؤنث منها (كما في (21)) تَلحَق أيضا حتى المذكر منها (كما في (20))، فيُمنَع من الصرف لهذا السبب حسب تصور النحاة العرب القدماء. كما أن وَسْم اسم العلم المذكر بلاحقة من لواحق التأنيث لا يعني أن هذه الأخيرةَ دالةٌ على التأنيثَ (انظر (20ج)). وهذا يبدو جليا مقارنة بأسماء الأجناس في الأمثلة (22). إذ التاء لتمييز الواحد من الجنس، وليس القصد من إلصاقها الدلالة على التأنيث.

β- أسماء الأجناس أو الأنواع: هي لتمييز الواحد من الجنس.

(22) أ) نخلة — نخل

ب) تمرة — تمر

ج) تفاحة — تفاح

د) شجرة — شجر

(23) أ) «أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ» (التنزيل الحكيم، الحاقة: 7)

ب) «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ» (التنزيل الحكيم، القمر: 20)

(24) أ) نزلتِ *بـالبلدة*

ب) حطت *الطائرة* وسط *المدينة*

وإلى جانب صَرْفِيات التأنيث، يلعب السياق كذلك دوره في تحديد تأنيث اسم الجنس أو تذكيره. ويظهر هذا بوضوح من خلال آثار التطابق بين الصفة والاسم، كما تبيِّن ذلك الآيتان الكريمتان في (23). أما عن التاء في (24)، فهي ليست من جنس، بل لتكثير حروف الكلمة حسب الأشموني.

٨- اسم الفرد أو الذات:

وعن تنوع الأمثلة (25) الخاصة باسم الفرد أو الذات، نقول إن نظام الجنس الموسوم فيها ثنائي تماما، كما هو الحال في الصفة. فالتاء والألف غالبا ما تفيدان فيه التأنيث، على أساس التقابل مذكر/ مؤنث. إلا أنه في (25ب) قد تبدو التاء ظاهريا للتأنيث، ولكن الأمر غير ذلك؛ لأنها تؤكِّده. كما أن التاء ليست صَنِيفةً؛ لأنها لا تَنقُل المَقُولة من طبقة إلى أخرى. وعليه، تكون التاء في (25ب) لتأكيد التأنيث، لا للتأنيث.

(25) أ) قط — قطة

ب) جمل — ناقة

ج) غَيْلم — سلحفاة

د) خنفس — خنفساء

٧- المصادر والجموع واسما المرة والآلة:

أما عن التأنيث في المصادر والجموع واسم المرة، كما توضِّح ذلك الأمثلة (26)-(29)، فيختلف مضمون لاصقة التأنيث باختلاف طبيعة الاسم أو المَقُولة التي تَلحَقها. فالألف في "هِجِّيراء" للتوسيع، وقد تلتبس بين الجمع والمفرد في الدلالة على التأنيث (كما في (28ا)). والتاء في "تنمية" و"تزكية" هي عوض عن ياء المصدر في الناقص (من زكَّى، تَزْكِيةٌ)، وفي "عِدة"، و"إقامة"، و"لغة" هي عوض عن فاء الكلمة في الأولى التي أصلها "وَعْد"، وعين الكلمة في الثانية التي أصلها "إقوام"، ولام الكلمة في الثالثة التي أصلها "لُغَو". ودون أن ننسى دلالة التاء في الجموع، كما يشير المثال (29) إلى ذلك، فتاء "زنادقة" في (ا) هي بدل من ياء التكسير في "زناديق". وتاء "البرابرة"في (ب) هي للدلالة على تعريب الأسماء المُعْجَمة. أما تاء "الأَشاعِتة" و"المَناذِرة" في (ج)، فهي للدلالة على النَّسَب وليست للتأنيث.

(26) ا) ذكرى رائعة

ب) رَغْباء (مصدر رغِب)، هجّيراء

ج) تزكية، تنمية

د) هذا قول حق، وهذه قضية حق (استواء مذ/مؤ في المصادر عند الوصف)

(27) ا) شغَّلت الغَسَّالة (وهر (1979) Wehr)

ب) وعدتُه عِدة (وَعْد)

ج) أقمتُه إقامة (إقوام)

د) كلَّمتُه بلغة (لُغَو)

(28) ا) سُكارى (جمع سكران) ــ حُبارى، سُمانى (في المفرد)

ب) قتلى، جرحى، صرعى

ج) قصباء كثير (لا تدخل التاء على س، والتأنيث سياقي)

(29) ا) حضر *الزنادقة*

ب) استوطن *البرابرة* المغرب

ج) رحل *الأشاعتة والناذرة* عن الوجود

إذن، فباستعمال اللاصقة يمكن أن نصل إلى صَرْف الأسماء والصفات (مذ/ مؤ)، كما يمكن أن نشتق صيغا أخرى كالمبالغة والتصغير واسم الوحدة وغيرها. فالتاء والألف بنوعيها صَرْفِيَّتان متعدِّدَتا الوظيفة أو المضامين (انظر فشر Fischer (1972) بهذا الشأن).

2. طبيعة لواصق التأنيث وإنتاجيتها من منظور استشراقي

لنتأمل الآن الأمثلة الموالية أسفله:

(30) ا) السِّعْلى، السِّعْلاء، السِّعْلاة (الغول، ساحرة الجن)

ب) الدَّهْنا، الدَّهْناء (الفَلاة، عشبة حمراء يُدبَغ بها)

ج) الخُنْفسة، الخُنْفساء (حشرة سوداء اللون)

فبالنظر إلى (30)، نجد أن اللواحق الثلاث الأولى (التاء والألف بنوعيها) قد ارتبطت فيما بينها، فهي تَرِدُ على بنية واحدة في أحيان كثيرة (كما في (ا))، ويُعَد دورُها كعلامة على التأنيث من أبرز ما تقوم به هذه اللواحق بصرف النظر عن الأدوار الكثيرة الأخرى (كالمبالغة، والتعويض، والإلحاق، والتوسيع،...)، ويمكن أن يظهر اثنان منها كما في (ب) و(ج). ويفسِّر بروكلمان في كتابه " Précis de linguistique sémitique (موجَز عن اللسانيات السامية)"، ومن والاه من المستشرقين (أمثال فليش (1961) (Fleish) في كتابه "Traité de philologie arabe (دراسة فقه اللغة العربية)" ورايت (1974) في كتابه " A grammar of the Arabic language (نحو اللغة العربية)")، هذا الارتباط (ارتباط لواصق التأنيث) على مستوى الظهور والأدوار بالتطور التاريخي للغة العربية؛ إذ يرى أن الألف

ليست إلا تطورا للتاء في العربية، فقد كانت في غالب الأحيان البديل الأساسي للتاء. وقد قَدَّم هذا التطور في المراحل التالية، كما في (31):

(31) [ـَة] = â < a < ah < at [ـَه] < [ـَ] < [ـى]

ومعنى هذا حسب عبد الصبور شاهين: "أن من الممكن أن نقول باحتمال وجود صور منتهية بالتاء لكل ما ينتهي بالألف المقصورة والممدودة، وأن هذه الصور قد ماتت بفعل التطور اللغوي، فلم تسجِّلها المعاجم العربية لشيوع الصور الجديدة". ويشير إلى نفس الفكرة ابراهيم السامرائي (1968) في كتابه "النحو العربي نقد وبناء". ويمكن أن يسير تطور الألف الممدودة في نفس الاتجاه، وهو ما ذهب إليه عبد الصبور شاهين، فهي أيضا تُعَد تطورا للمقصورة، إذ يؤثِّر على المستعمِل العربي، في نظره، إقفالُ المقطع المفتوح في نهاية الكلمة بالهمزة. ويمكن تصنيف هذا ضمن كراهات النطق العربي، وهو ما تميل إليه العربية المغربية، كما تبدي ذلك فعلا الأمثلة (32):

(32) أ) حمراء — حمره

ب) صحراء — صحره

فقد زالت العلامتان الثانية والثالثة (الألف بنوعيها) تقريبا من بعض اللهجات العربية الحديثة، وحلَّت محلَّها هاء التأنيث، وربما يعود السر في زوال هاتين العلامتين وحلول العلامة الأولى محلَّهما هو ميل اللغة إلى أن تسير في طريق السهولة والتيسير.

وفي إطار إبراز طبيعة التاء والألف وإنتاجيتها في الساميات، يعتبر كرلوتش (1962) في كتابه "L'apophonie en sémitique (الأبوفونيا/ التناوبات الحركية في الساميات)" أن كلا من الألف المقصورة والألف الممدودة حديثتا التكوين بالمقارنة مع التاء؛ إذ يرى هذا المستشرق أن هاتين اللاحقتين تختصان بالاسم والصفة، وأنهما انتُزِعتا في مرحلة من مراحل تطور التطور اللغوي من نهاية الأسماء المقصورة والممدودة الناتجة عن إعلال لتُضاف إلى جذوع ثلاثية صحيحة، وذلك لأغراض أبرزُها التأنيث. وهذا يساير ما ذهب إليه برجشتراسر

في كتابه "التطور النحوي" بخصوص تاريخ اللواحق واعتبار لاحقة التاء هي الأصل الأول؛ أي أن التاء مع الفتحة قبلها سامية الأصل. وكثيرا ما كانت الفتحة تُحذَف في اللغة السامية الأم، ولم يبق في العربية إلا القليل، كما يظهر ذلك جليا من خلال الأمثلة (33):

(33) ا) أخ — أخت

ب) ثِنْتان

ج) كِلا — كِلْتا

إلا أننا نشير إلى أن الفتحة هي حركة لتفادي الساكن (أي ليست من بنية المُورْفِيم)، فالتاء وحدها هي التي للتأنيث. هذا إضافة إلى أن وضع اللواصق في الصرف ملتبس، فالتاء مثلا هي صَرْفِية متعدِّدة الوظيفة أو المضامين. فهي تارة تدل على التأنيث، وتارة أخرى قد تدل على غيره من مبالغة، أو توسيع، أو إلحاق،... إذن، في المعرفة الموسوعية ليست هناك ضوابط تجعل التأنيث في اللغة العربية وغيرها من اللغات واضحا في ذهن متكلِّمها. لذلك، فتناول هاته الظاهرة يتطلب تمحيصا جيدا في المعطيات، بغية إزالة الاضطراب الحاصل لدى مستعملي اللغة أنفسهم.

3. صيغ التأنيث في اللغة العربية

إلى جانب التأنيث المعجمي والتأنيث السياقي، هناك التأنيث بالصيغة الذي من الممكن جدا أن يكون تأنيثا صرفيا أو معجميا. لنتأمل هذه الأمثلة المناسبة التي يتقابل فيها المذكر بالمؤنث:

(34) ا) أكبر — كبرى

ب) أحمر — حمراء

ج) عُريان — عُريانة

د) حذِر — حذِرة

ه) غضبانُ/ غضبانٌ — غضبى/ غضبانةٌ

لطالما لاحظ المشتغلون بأدبيات الصفات وجود تقابل بين مذكر ومؤنث بعض الصيغ، التي تنتهي بلاحقة من اللواحق الثلاث، كما في (34). غير أن التأنيث بالصيغة قد تغيب عنه اللواصق أحيانا؛ وهو ما نلفيه مع بعض صيغ المبالغة الشهيرة التي قد لا نجد لها تفسيرا، في التقليد النحوي العربي، حيث يستوي فيها المذكر والمؤنث على حد سواء. من أمثلة ذلك، نذكر ما يلي[5]:

(35) أ) فاعل: ناقة *ضامر* (نحيفة)، امرأة *عانس*

ب) فعول بمعنى فاعل: امرأة *صبور*، عمة *حقود*

ج) فعيل بمعنى مفعول: فتاة *قتيل*، امرأة *جريح*

د) مِفْعل: سيدة *مغشم* (جريئة)، امرأة *مرجم* (شديدة)

هـ) مِفْعال: حارسة *مفتاح* (كثيرة الفتح)، مؤطرة *معلام* (كثيرة العلم)

و) مِفْعيل: خبيرة *منطيق* (بليغة)، امرأة *معطير* (كثيرة العطر)

بناء على ما سبق، أظن أن البحث في المشاكل المتصلة بالصيغ وتَعالُق دلالة الصيغة بدلالة صَرْفِيات التأنيث كفيل بتوضيح العديد من مثل هذه الأمور. فخلافا لما عمَّمته الأدبيات التقليدية، يمكن إدراج هذه المشاكل، بوجه عام، في الدلالة الصرفية، وبوجه خاص، في الدلالة الجِهِية للصرف.

1.3. الدلالة الصرفية والتأنيث الإلصاقي: صيغة فَعول وفَعيل

ما يثير دهشتنا في هذا السياق، مع هذه الصيغ، التي قيل في حقها في الأدبيات التقليدية باشتراك المذكر والمؤنث فيها، أنها تقبل بافتراض وجود علاقة بين المنفذية (agentivity) والتأنيث باللاصقة التاء؛ وهي علاقة يمكن أن

(5) بشأن هذه الصيغ، انظر كذلك حسن عباس في "النحو الوافي"، ج 4، ص 546 وما بعدها.

ننعتها مبدئيا بأنها تبدو لا متوازية[6]. ونسوق، فيما يلي، الأمثلة (36)-(37) التي سننكب على دراستها لتوضيح حقيقة هذا اللاتوازي:

(36) ا) غلام شكور، صبور، غدور

ب) *جارية شكورة، صبورة، غدورة

ج) جمل ركوب، فتى أكول

د) ناقة ركوبة، فتاة أكولة

(37) ا) رجل عليم، كريم، نبيل، شديد

ب) امرأة عليمة، كريمة، نبيلة، شديدة

ج) جندي جريح، قتيل، لديغ، كسير

د) *ممرضة جريحة، قتيلة، لديغة، كسيرة

ا. القراءة المنفذية والتأنيث الحقيقي

تكشف لنا مقارنة الأمثلة في (36) بالأمثلة في (37) على أن تأويل المنفذية (بمعنى الفاعلية) يجعل صيغة *فعول*، في (36ا)، تنفر من دخول تاء التأنيث عليها؛ وهو ما يصنِّفها في عداد الصيغ التي يمكن أن تتمتع بتأنيث لا إلصاقي؛ أي من دون حاجة إلى اللاحقة التاء التي تفيد التأنيث. ومن هنا لامقبولية (36ب)، حيث الصيغة *فعول* لا تتعدى إلى فضلتها اللاصقة في الدلالة على الفاعل المؤنث. فإذا قرَّبنا إلى هذا التصور مفهوم اللزوم والتعدي في الفعل، فإن اللاصقة التاء ستكون بالضرورة هي مفعول الصيغة *فعول*. وموازاة مع

(6) ذكر السيوطي، في حق صيغتي *فعول وفعيل*، ما قد يبسِّط لنا الصورة أثناء التحليل. قال: "تحذف التاء من باب *صبور وشكور* فرقا بين *فعول* بمعنى *فاعل وفعول* بمعنى *مفعول*، نحو *حلوبة وركوبة* بمعنى *محلوبة ومركوبة*، ومن باب *جريح وقتيل* فرقا بين *فعيل* بمعنى *مفعول* وبين *فعيل* بمعنى *فاعل*، كعليم وسميع". عن "الأشباه والنظائر"، ج 1، ص 319.

لا مقبولية التاء المعتبَرة للتأنيث في (36ب)، تقبل صيغة *فعيل* باستحباب، في (37ب)، دخول تاء التأنيث عليها؛ أي أنها تتخذ إجراء أو سلوكا معاكسا للصيغة *فعول*، في سياق القراءة المنفذية، حيث *امرأة* تكون بمعنى الفاعل المؤنث *عالمة*.

ب. القراءة اللامنفذية والتأنيث الحقيقي

إلى جانب تأويل المنفذية في صيغتي *فعول* و*فعيل*، هناك القراءة الثانية المقابلة لها (أعني اللامنفذية). وفي سياق هذا التأويل، نلفي الصيغة *فعول* تقبل باستحباب، في (36د)، دخول تاء التأنيث عليها؛ أي أنها تتخذ إجراء أو سلوكا معاكسا للأول لأنها مؤوَّلة على القراءة المفعولية، حيث *الناقة* تكون بمعنى المفعول المؤنث *مركوبة*. في مقابل هذا، ترفض الصيغة *فعيل* اتصالها بتاء التأنيث، لضعف مقبوليتها في سياق القراءة اللامنفذية، خلافا للصيغة *فعول*؛ وهو ما يعني لحن البنى الواردة في (37د) لأن المقصود القراءة "ممرضة مجروحة/ مقتولة".

ج. استنتاجات

تتصرف *فعول* و*فعيل* بصورة معاكسة في كل مرة في سياق قراءة معينة؛ وفيما يلي نقدِّم، بصورة إجمالية، الوضعيةَ الخاصة بتأنيث الصِّفَتَين *فعول* و*فعيل*، حيث تعبِّر الترسيمتان في (38) عما هو مُطَّرِد في النسق العربي، ولا تهمنا هنا حالات الشذوذ اللغوي[7]:

---

(7) استدل المفسِّرون على أن لفظة *بَغِيًّا* التي وردت في التنزيل الحكيم، كما في (α)، هي على وزن *فعول* لا *فعيل*؛ إذ لو كانت على *فعيل* لَتَعيَّن دخول تاء التأنيث عليها، فيقال *بَغِية* في الآيتين لأنها بمعنى فاعل.

(α) ا. ((قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا)) (مريم: 20).

ب. ((يا أخت هارون ما كان أبوك امرَأ سوء وما كانت أمك بغيا)) (مريم: 28).

وفي نفس السياق، يعلق محمد بلبول (2007) قائلا: "من الأسلم أن تُرَد إلى *بَغُوياً*. فلما اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون (في تحليل القدماء)، قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء الأصلية، وقلبت الضمة كسرة لمجاورتها الياء المشدَّدة كراهة الخروج من ضم إلى ياء".

(38) ا) فَعول

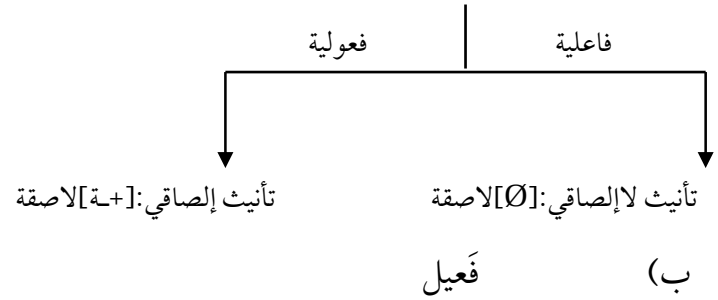

ب) فَعيل

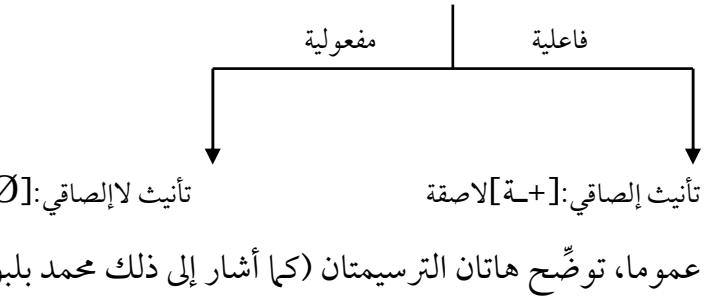

عموما، توضِّح هاتان الترسيمتان (كما أشار إلى ذلك محمد بلبول (2007)) العلاقةَ المعكوسة لكل من *فعول* و*فعيل* تجاه قابليتهما لحمل تاء التأنيث. لكن هذا اللاتوازي الظاهر بين الصيغتين، يثوي تواز تام يتعين الكشف عنه؛ إذ يتجلى في أن لاحقة التأنيث، في كلتا الحالتين، تتحقق متى تمت مراعاة القراءة القانونية (المنفذية أو اللامنفذية)، وأن القراءة الموسومة المتعارضة مع ما تقتضيه البنية الصرفية تُفقِد الصيغةَ الحساسيةَ للجنس، فنصبح أمام بنيات من قبيل (39):

(39) ا) امرأة صبور، عجوز

ب) طفلة جريح، ذبيح

إذن، بكشف هذه الحقائق، عن صيغتي *فعول* و*فعيل* (وهما من بين الصيغ التي قيل في حقها إنها مشتركة بين المذكر والمؤنث)، يتضح أنهما تسلكان سلوكا طبيعيا تجاه التأنيث الإلصاقي بالتاء داخل النسق العربي. ولتوضيح هذه الفكرة، يرى محمد بلبول (2007) أنه "يجب أن نستحضر أن ما يمحض الفاعلية هو

الكسرة الموجودة في اسم الفاعل. أما المفعولية أو المنفذية الصفر (أي اللامنفذية)، فتتحقق بواسطة الحركة المحورية الضمة التي نصادفها في الفعل المضموم العين. وفي صيغة اسم المفعول هي الضمة نفسها في البناءين السالفين".

2.3. الدلالة الصرفية والتأنيث الإلصاقي: صيغة مفعال/ مفعيل وصيغة فَعّال(ـة)/ فُعَل(ـة)

من الصيغ التي تسلك سلوكا استثنائيا تجاه التأنيث، الصيغ الموجودة في كل من (40) و(41)، التي يصعب تفسيرها بإحدى القراءتين (المنفذية و/ أو اللامنفذية)، كما في التحليل السابق لصيغتي *فعول وفعيل*.

(40) ا) مفعيل: *منطيقة/ منطيق، *معطيرة/ معطير

ب) مِفعال: *معوانة/ معوان، *مهذارة/ مهذار

(41) ا) فعَّالة: امرأة/ رجل علاَّمة، شيخة/ شيخ نسَّابة

ب) فُعَلة: امرأة/ رجل همزة، لمزة

فالصيغتان في (40) تفيدان المبالغة، وتدخلان فيما يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ إذ لا تقبلان التاء لأسباب خفية. وعن هذه الصيغ، قال محمد بلبول (2007): "والمظنون عندي أنها قد تكون على صلة بالصبغة المرتجلة لهذه الصيغ التي لا تربطها علاقة اشتقاق واضحة بالفعل أو المصدر". أما الصيغ في (41)، فتمثل لاجتماع المذكر أو مشاركته في الصفة المؤنثة لبلوغ الغاية والنهاية[8].

(8) نعثر في "الخصائص" لابن جني، ج 2، ص 201، على تفسير واضح لدلالة التأنيث، يقول: "وذلك أن الهاء في نحو ذلك لم تلحق لتأنيث الموصوف بما هي فيه، وإنما لحقت لإعلام السامع أن هذا الموصوف بما هي فيه قد بلغ الغاية والنهاية، فجعل تأنيث الصفة أمارةً لما أريد من تأنيث الغاية والمبالغة، وسواء كان ذلك الموصوف بتلك الصفة مذكرا أو مؤنثا".

خاتمة

حاولنا، بداية، رصد ظاهرة التأنيث في اللغة العربية مقارنة ببعض اللغات الطبيعية (والسامية أيضا). وقد تجلى ذلك في تصنيف هذه اللغات وتقسيمها إلى أنظمة تصريف أجناس مناسبة: أنظمة ثنائية (مذ/ مؤ)، فثلاثية (مذ/ مؤ/ مح)، ثم ما فوق ثلاثية. كما أخذنا أيضا في الحديث عن طبيعة لواصق التأنيث وإنتاجيتها من منظور استشراقي، فضلا عن دراسة التأنيث والصيغ الصرفية العربية التي ربطناها بالدلالة لحل بعض مشاكل الإلصاق في صيغ التأنيث.

المراجع العربية والأجنبية

- برجشتراسر، كَوتْهِلْف، *التطور النحوي للغة العربية*، إخراج وتصحيح وتعليق رمضان عبد التواب، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة ط.2: 1994.
- بروكلمان، كارل، *فقه اللغات السامية*، ترجمة رمضان عبد التواب، منشورات جامعة الرياض، الرياض ط 1977.
- بلبول، محمد ومحمد الرحالي: 2007، محاضرات سلك الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن، *البُلْغة في الفرق بين المذكر والمؤنث*، تحقيق وتعليق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة ط.2: 1996.
- ابن الأنباري، أبو بكر، *المذكر والمؤنث*، تحقيق الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة ط 2007.
- ابن التستري، سعيد، *المذكر والمؤنث*، تحقيق وتعليق أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي، القاهرة ط.1: 1983.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، *الخصائص*، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية المكتبة العالمية، القاهرة ط.2: 1952.
- ابن يعيش، موفق الدين، *شرح المفصل*، عالم الكتب، بيروت (بدون تاريخ).
- حجازي، محمود فهمي، *علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية*، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ط 1992.
- حسن، عباس، *النحو الوافي*، دار المعارف، القاهرة ط.3: 1966.

- رمضان، عبد التواب، *التذكير والتأنيث في اللغة*، مع تحقيق رسالة أبي موسى الحامض في المذكر والمؤنث، القاهرة ط 1967.
- السامرائي، ابراهيم: 1968، *النحو العربي نقد وبناء*، دار صادق، بيروت.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، *الكتاب*، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت ط.3: 1988.
- السيوطي، جلال الدين، *الأشباه والنظائر في النحو*، دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ).
- شاهين، عبد الصبور: 1966، *القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث*، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- **B**rockelmann, C.: 1910, *Précis de Linguistique Sémitique*. Traduit de l'Allemand par W. Marçais et Marcel Cohen. Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner.
- **C**haker, S.: 1998, Genre grammatical (masculin/féminin). *Encyclopédie Berbère*, XX. 3042-3045.
- **F**ischer, W.: 1972, *Grammatik des Klassischen Arabisch*. Wiesbaden: Otto Harrassowitz.
- **F**leish, H.: 1961/1979, *Traité de Philologie Arabe*. Vol.**1**/**2**. Dar-el Machreq. Beyrouth: Imprimerie Catholique.

———: 1968, *L'Arabe Classique: Esquisse D'une Structure Linguistique*. Dar-el Machreq. Beyrouth: Imprimerie Catholique.

- **K**urylowicz, J.: 1962, *L'Apophonie en Semitique*. Pologne: Warszwa-Krakow.
- **W**right, W.: 1974, *A Grammar of the Arabic Language*. Cambridge: Cambridge University Press.